انطباعات الرحالة الأجانب عن سكان الحلة في العصر الحديث

((دراسة تاريخية))

الاستاذ المساعد الدكتور
علي هادي عباس المهداوي
جامعة بابل / كلية التربية

انطباعات الرحالة الأجانب عن سكان الحلة في العصر الحديث

((دراسة تاريخية))

الاستاذ المساعد الدكتور
علي هادي عباس المهداوي
جامعة بابل / كلية التربية

المقدمة:

ان ابرز الصعوبات التي يواجهها الباحثون في مجال الدراسات الاجتماعية للمدينة العراقية في العصر الحديث، هي قلة المعلومات المتوفرة في المصادر المحلية، حقيقة ان اغلب هذه المصادر قد تناولت تاريخ العراق السياسي والاقتصادي والثقافي في شي من التفصيل، لكنها تركت فراغاً كبير فيما يتعلق بدراسة الجوانب الاجتماعية، وان وجدت بعض الدراسات فأنها قد تطرقت الى ذلك بنوع من التعميم، والذي لا يفي برسم صورة واضحة متكاملة في التعرف على سكان مدينة ما، واعدادهم واحوالهم وتقاليدهم الاجتماعية، بأستثناء مدن العراق الكبرى كبغداد والبصرة والموصل.

انطباعات الرحالة الأجانب عن سكان الحلة في العصر الحديث:

تعد كتب الرحلات الاجنبية مادة توثيقية ساهمت بإغناء تلك المعلومات، ورغم ان ما ورد فيها يمثل في الواقع وجهات نظر شخصية، خاصة بأولئك الرحالة الذين وفدوا الى العراق في فترات زمنية متباينة خلال العهد العثماني وربما كانت المصدر الوحيد، حيث لا سبيل امام الباحث الا الرجوع اليه حينما يعنى بدراسة الجانب الاجتماعي في ذلك العهد، ولكن عليه ان يكون دقيقاً في تعامله مع النصوص التي ورد ذكرها في تلك الكتب بخصوص تقديرات اعداد السكان وسلوكهم الاجتماعي وطبيعة حياتهم اليومية.

فالرحالة لم يتحروا في تسجيلهم لمثل هذه المعلومات العوامل والاسباب المتعلقة بالترتيب الاجتماعي لسكان مدينة ما، وربما يمكن القول ان ما ذكروه هو في حقيقة الامر من باب العموميات التي لا ينبغي الاستناد عليها كقاعدة في الحكم والقياس كونها وجهات نظر خاصة.

وقد حظيت مدينة الحلة بأهتمام عدد كبير من الرحالة لاهميتها الحضارية والاقتصادية المعروفة فقربها من اثار بابل القديمة ووقوعها على مفترق طرق شبكة المواصلات البرية والنهرية بين بغداد والبصرة واعالي الفرات جعلها مقصداً للسواح الاجانب، وهي بذلك من المدن العراقية القلائل التي حازت على اعجابهم، فأفردوا لها في كتبهم عدد من الصفحات، ضمت في طياتها معلومات وان كانت بسيطة ومقتضبة احياناً، غير انها توثق جانباً أساسياً من تاريخ الحلة في العصر الحديث.

ان اقدم الاشارات التي ورد ذكرها عن سكان مدينة الحلة في كتب الرحالة الاجانب ترجع الى عام ١٦٢٩، حيث ذكر الاب *Plilip AL-Karmeli* انهم ينحدرون من قبائل عربية معروفة، ويعاملون الضيف بما عرف عنهم من لطف وكرم عربي، وأضاف "ان غالبيتهم من المسلمين ولكن هناك عددا من المسيحيين الارمن واليعاقبة والنساطرة"[١].

وفي عام ١٦٥٦ ذكر الراهب الايطالي فنثنسو ان هدفه من زيارة الحلة هو لتحقيق حلم طالما راوده باستمرار لمشاهدة معالم بابل الاثرية، غير انه قد اصيب بخيبة امل حينما علم ان الوصول الى ذلك المكان محفوف بالمخاطر، فالسكان القاطنين حول المدينة القديمة كانوا يتعرضون للزوار، دون وازع او خوف من السلطة العثمانية، "اننا تخوفنا من اعراب المنطقة فلم نذهب لزياره اثار بابل، وكنا نتمنى زيارة الموقع لكننا لم نجد مرافقاً وقررنا مغادرة الحلة"[٢].

ويبدو ممكناً القول، ان فقدان الامن ليس فقط لضعف السيطرة العثمانية فحسب، بل ان قوة نفوذ القبيلة لازال متأصلاً في نفوس ابنائها الى درجة كانوا معها لا يسمحون للغرباء بالمرور في مناطقهم الا بدفع مبلغ من المال، وهذا ما أكده الرحالة *Sebastiani* في عام ١٦٥٨ "المنطقة مليئة بالاعراب، اذ هجموا على قافلة مرت من هناك فضربوا افرادها بقسوة وقتلوا بعضهم – لامتناعهم عن دفع المال– وكان رئيس قطاع الطرق ابن شيخ تلك المنطقة"[٣].

وامضى الرحالة البرتغالي *Godinho* وقتاً ممتعاً "اثناء مكوثه في الحلة للفترة من ١٧-٢٠ نيسان ١٦٦٣ وهو في طريقه من البصرة الى حلب، حيث نزل بضيافة احد اعيان المدن واصفاً اياه "بالكرم والسخاء"، كما اعجب بالطريقة التي تم بها فرش "المضيف" فذكر قائلا: "انه مفروش بانواع راقية وجميلة من الفرش الباهضة الثمن"، واثناء تجوله في شوارع واسواق الحلة، خرج بأنطباع مفاده "أن السكان هنا يهتمون بالنظافة، "ووصف الحليين" باللطف والبساطة واكرام الضيف وهم يعبرون عن ذلك بنحر الذبائح واقامة الولائم"[٤].

وحسب تخمينات الرحالة الانكليزي *Parsons* ان عدد سكان الحلة في عام ١٧٧٤ كان يزيد عن ثلاثين الف نسمة يمتهن اغلبهم الزراعة، بينما يمارس عدد كبير منهم اعمالاً تجارية[٥]، مما يجعلنا نميل الى الاعتقاد ان الاحوال العامة التي عاشتها

الحلة آنذاك كانت مزدهرة، وهو رأي يعززه ما اورده الرحالة الفرنسي *Sestini* في عام ١٧٨١ حيث كتب قائلاً "الحلة من المناطق المأهولة بالسكان، وهم يتركزون بصورة اساسية في الجانب الايمن من الشط الذي يخترقها ويقسمها الى قسمين، وهم يزاولون عمليات البيع والشراء، اما الاهالي القاطنين في الجانب الايسر، فيمتهنون الزراعة وبيوتهم متناثرة هنا وهناك" وأضاف أيضاً "ان العرب المسلمين يؤلفون جزءاً اساسياً من السكان، وكما يوجد اعداد من الموظفين الاتراك اضافة الى اليهود والارمن" (٦).

اما *Buchkingham* فقد اشار في عام ١٨١٦ ان القسم الغربي من المدينة يمثل نطاقاً اقتصادياً وسكانياً مهماً، يتواجد فيه "٨-١٠ الاف نسمة" وذكر ايضاً بأن التجار العرب يتمتعون بمركز اجتماعي مرموق فهم يمسكون بالجزء الاكبر من التجارة التي يشاركهم فيها بعض العناصر التركية والعبرية (٧).

وخرج بكنغهام بأنطباع غير جيد عن الحليين فقد امتعض من تجمع بعض الاشخاص حوله وزميله الذي كان يرافقه في الرحلة، حينما عبر جسر القوارب الى الضفة الثانية من النهر، فحسب اعتقاده ان لباسهما الأوربي قد أثار استغراب الناس "فأخذ الحشد يتجمع اقرب فأقرب في وقفات متتابعة من الفضول في التطلع الى ذلك الغريب بأفواه مفتوحة متسائلة"، وروى ايضاً قصة طريفة عاش احداثها حيث راح بعض الفتيان يرمونه بنظرات غريبة وهو يهتفون "فرنجي غاوور – أي فرنجي كاف"، ويقفزون على الواح الجسر المتمايلة "لكي يضاعفوا من اهتزازها مما اثار المخاوف وسبب لي المضايقة"(٨).

ان بكنغهام واخرين غيره، لم يكونوا على إلمام بالتاريخ المحلي للمدن والمناطق التي مروا بها، فهم ينقلون الحوادث دون التمحيص في اسبابها والعوامل التي كانت تقف وراءها فقد ذكر في كتابه "وصلت الينا انباء الشغب التي وقعت أمام بيت حاكم المدينة في الليلة السابقة، قتل فيها احد الاشخاص وجرح اثنان، وهذا الوضع اضافة الى (الخلق السيء) الذي اشتهر به اهل الحلة الذين كانوا يقتلون حكامهم ويغتالون الواحد تلو الاخر دون ان ينالهم عقاب على ذلك، وكذلك صلفهم وسخريتهم التي اظهروها تجاهنا مع رفيقي الاوربي حين دخلنا المدينة، وكل هذه الامور حملتنا على البقاء هادئين في الخان ذلك اليوم"(٩).

وذكر الرحالة الانكليزي *Porter* في رحلته عام ١٨١٨ ان الحليين يفضلون أكلة السمك، وهو طعامهم المفضل نظراً لتوفر الاسمال باعداد كبيرة في الشط الذي يمر بالمدينة ولكنه تساءل "سمعت من بعض الاشخاص انهم يأكلون السمك طرياً ونياً باللعجب!"(١٠).

وأوضح ايضاً بأن السكان في الحلة يفضلون الالوان الفاتحة في اختيارهم للملابس غير أنهم يرتدون الملابس ذات الالوان القاتمة تعبيراً عن الحزن (١١)، واكد

الرحالة *Migana* بان سكان مدينة الحلة اخذوا بالتناقص للفترة ١٨٢٤–١٨٢٧ وذلك بسبب الاحداث التي شهدتها المنطقة حيث ارسل باشا بغداد (الوالي دواد باشا) حملة عسكرية كبيرة لمطاردة احد المنشقين عن الحكومة العثمانية والذي لجأ الى الحلة فدخلت المدينة وقتلت اعداد منهم [١٣].

وورد في رحلة ولستيد *Wasllsted* عام ١٨٣٠ بان اهالي الحلة "يتصرفون دائماً تصرفات سيئة بصفة بارزة اذا يقتلون خصومهم ويغتال بعضهم بعضاً دون عقاب من الحكومة"[١٤] ويبدوا ممكناً تفسير هذا النص بضعف السيطرة المركزية للحكومة العثمانية في وقت استمرت العشائر العربية في المنطقة باعتزازهم بتقاليدهم واستقلالهم الذاتي بعيداً عن تأثيرات السلطة العثمانية.

ونقل *Friser* صورة مأساوية لما بدت عليه معظم مدن العراق التي اجتاحها وباء الطاعون عام ١٨٣١ ومنها مدينة الحلة، فذكر"ان هذا الوباء قد قضى على اعداد كبيرة من سكانها، حيث كان عددهم قبل ذلك يقدر بنحو عشرة الاف نسمة"[١٥].

وهذا ما اكده الرحالة الانكليزي *Skinner* في العام التالي حيث أشار "ان حالة من اليأس والقنوط كانت تبدو على ملامح الناس الذين شاهدتهم لهول ما أصابهم من ذلك الوباء" [١٦].

واثنى الرحالة الهولندي *Nigeholt* على الحفاوة التي استقبله بها أهالي الحلة ووصفهم "انهم مؤدبون" كما اشاد بأصول الضيافة العربية التي وجدوها في لدن بعض الاعيان الذين حل في ضيافتهم وغادر المدينة حاملاً معه ذكريات جميلة امضاها مع الحليين [١٧].

وذكرت السائحة الفرنسية مدام ديولافوا بان طراز بناء البيوت في الحلة مرتبط بالامكانات المادية والمكانة الاجتماعية للاشخاص فالاثرياء والتجار يسكنون في بيوت مبنية بالطابوق الذي غالباً ما كان يجلب من خرائب بابل القديمة، أما الاخرين فكانوا يقطنون بيوتاً من الشعر[١٨].

وتطرق *Cowper* عام ١٨٨٩ الى بعض العادات التي رافق مناسبات الزواج، فكتب قائلاً "اعتاد الناس في مثل هذه المناسبة على إقامة الولائم الكبيرة وارتداء الملابس الجميلة، بينما راح بعض الرجال ينفخون في المزامير ودق الطبول وهم في غاية الفرح"[١٩].

وروى الرحالة *Budj* ١٨٩٠ انه قد علم من بعض الاشخاص الذين التقى بهم في الحلة ان عددا كبيراً من الاهالي يحتفظون في بيوتهم بقطع من الاثار القديمة ولاسيما الاختام البابلية اعتقاداً منهم انها تطرد الشر والحسد "ويحمله الرجال والنساء في اسماط تشد الى جسومهم او توضع تحت اباطهم اليسرى في مطاوي ثيابهم"[٢٠].

وذكر الرحالة الهندي بهارد عام ١٩٠٧ بان "الزي" الذي يرتديه الرجال في الحلة يكاد ان يكون متشابهاً كما هو الحال في المناطق القربية منهم، "فهم يلبسون ثياباً

تتكون من سترة طويلة تصل الى الكاحلين وحزام حول الخصر، وفوق ذلك معطف فضفاض يدعى بـ"العباءة"، اما لباس الرأس فيتكون من قطعة قماش مربعة صنعت خصيصاً لهذا الغرض تطوى مثلث يعرف بـ"الزبون"، وتغطي الرأس وتنحدر على الظهر وتغطي الاذنين وتثبت بحبل سمكه نصف عقده مصنوع من وبر الجمال، ويضغط على الزبون في دائرتين ويعرف بـ"العقال"، وذكر ايضاً بان لباس الموظفين والجند الاتراك الذين شاهدتهم في المدينة متشابهه لطراز الملابس الانكليزية فهم يرتدون السراويل ويضعون الفين على رؤوسهم، كما أشار بان رجال الدين وطلاب العلم يلبسون جبة طويلة، وفوق رؤوسهم طربوش ملفوف بقطعة من قماش.

وتطرق بهادر الى عادات الحليين في تناول الطعام وبخاصة عند بعض الفئات الغنية كالتجار والاعيان والوجوه الاجتماعية فكتب قائلاً: "انهم يتناولون الطعام على المنضدة، حيث يتم ترتيب الصحون، لكنهم عكس الاتراك نادراً ما يستخدمون السكاكين والشوكات أثناء الأكل"[٢١].

والخلاصة فان الرحلات التي اشرنا اليها في هذا البحث هي في الحقيقة ما أمكن الحصول عليه من كتب، وربما كانت هناك كتب رحلات اخرى سيعثر عليها مستقبلاً مما يساهم في اغناء دراسة الجانب الاجتماعي في مدينة الحلة خلال الفترة العثمانية.

هوامش البحث:

(١) الكرملي : الرحلة الشرقية، ص ١٦٠.
(٢) فنتسو : رحلة فنتسو الى العراق ص ٨٨.
(٣) سبستياني : رحلات سبستياني ص ١٨٦.
(4) Godinho, M : Relaga'o do Novo camiho quez, P 1380
(5) Parsoms, Abraham : Travels in Asia, P. 140
(6) Sestini, code, micien : Voyage de constrantinople, P 235
(٧) بكنغهام : رحلتي الى، ٥٦/٢.
(٨) المصدر نفسه ٣٥/٢.
(٩) المصدر نفسه ٤٤/٢.
(10) Porte, sir Robert ker : Travels in Georgia, P 332
(11) Tbid, P, 332-333
(١٢) المنشىء البغدادي : رحلة المنشىء البغدادي، ص ٩٠.
(13) Mignan, capt Robert :Travels in Chaldea ,P 121
(١٤) ولستيد : رحلتي الى العراق ص ١٣.
(15) praser, G. Ballie : Travels in Koordistan, Mesopotamia, P 15
(16) Skinner K M : Agourne over land to India, P 216
(١٧) نجهولت : صفحات من مذكرات، جريدة البلد : العدد ٨٨٩، ٥ حزيران ١٩٦٧.
(١٨) ديولافو : رحلة مدرام ديولافو ص، ١٣٥ – ١٣٦.
(19) Cowper, H. Swains : Through Turkish Arabia, P 334.
(٢٠) بدج : رحلات بدج الى العراق، ١٥٧/١.
(٢١) بهادر : رحلة الى بغداد ص ١٤٣.

قائمة المصادر والمراجع

اولا : الرحلات المترجمة :

(١) بدج : رحلات الى العراق، ترجمة فؤاد جميل، ج ١ (مطبعة شفيق، بغداد، ١٩٦٨).
(٢) بكنغهام، جيمس: رحلتي الى العراق في سنة ١٨١٦، ترجمة سليم طه التكريتي، ج ٢ (دار البصري، بغداد، ١٩٦٩).
(٣) ديولافوا : رحلة مدام ديولافوا الى بلدة العراق سنة ١٨٨١، ترجمة : علي البصري، (مطبعة اسعد، بغداد، ١٩٥٨).
(٤) المنشىء البغدادي : رحلة المنشىء البغدادي، ترجمة عباس العزاوي، (شركة التجارة والطباعة المحدودة، بغداد ١٩٤٨).
(٥) ولستيد، جميس ريموند : رحلتي الى العراق في عهد الوالي داود باشا، ترجمة : سليم طه التكريتي، (منشورات مكتبة النهضة العربية، بغداد، ١٩٨٤).

ثانيا : الدوريات :

(١) اوشر، جون : مشاهدات جون اوشر في العراق، ترجمة : جعفر الخياط ،(مجلة سومر، مجلد ٢١ (١٩٦٥)).
(٢) بهادر، نواب حميد : رحلة الى بغداد، ترجمة : كاظم سعد الدين، (مجلة المورد، مجلد ١٨، العدد ٤ (١٩٨٩)).
(٣) سبستياني : رحلات سبستياني في القرن التاسع عشر، ترجمة : د. يوسف صبس، (مجلة المورد، مجلد ٩، العدد٣ (١٩٨٠)).
(٤) فشنسو: رحلة فشنسو الى العراق في القرن التاسع عشر، ترجمة : بطرس حداد، (مجلة المورد، مجلد ٩، العدد٣ (١٩٧٦)).
(٥) الكرملي، فيليب : الرحلة الشرقية، ترجمة : د. بطرس حداد، (مجلة المورد، مجلد ١٨، العدد ٤ (١٩٨٩)).

ثالثاً الصحف

(١) نجهولت، ليكلاما : صفحات من مذكرات الرحالة الهولندي الى العراق عام ١٨٦٧، ترجمة : مير البصري، (العدد : ٨٨٩، ٥ حزيران ١٩٦٧)

رابعاً الرحلات الأجنبية :-

(1) Cowper, H Swains : Through Turkish Arabia, V. 2, London -, 1878.
(2) Fraser,G.Ballie:Travelsinkoordistan,Mesopotamia,v,2London,1840
(3) Godinho,M.:Reiag a o do novo commonho quez,por terra emer ronde da India pore Portugal an node 1663.
(4) (lisbona, 1842).
(5) Mignam, capt Robert : Travels ic chaldea (London, 1857).
(6) Parsns, Abraham : Travels in asia and Africa (London, 1908).
(7) Portermsir Robert ker:Travels in gerigo, perisa, ancient rabylonia (London, 1822).
(8) Sestnin, code micien : doyage De constant inople A rassora en 1781.
(9) (Paris, 1858).
(10) Skinner, M. : Ajourney over land to India, v. 2 (London, 1863).